جائحة كورونا والعالم العربي بين الفردانية والتكتل العصبوي

محمد تملدو

مستشار أول بالمركز العربي للأبحاث.

هل يدرك العالم العربي أن الجائحة وما بعدها، يشكلان لحظة تاريخية، إنسانية وحضارية، تكتسي طابعا مفصليا، يتيح له فرصة مراجعة الذات، في اتجاه تحقيق الطفرة التنموية الحقة، وتغيير التموقع نحو الأفضل على المستوى العالمي؟

إن كان يدرك ذلك فعلا، فهل هو مستعد الان، وقبل فوات الأوان، لأن يقوم بكشف شامل لمكامن الخلل والضعف التي تعوق مساره لتحقيق هذا المبتغى؟

لقد تبين أن الريع الطبيعي، المتمثل في ما تزخر به الأرض العربية من ثروات باطنية، ومن جمال طبيعة ومناخ، لم يحققا سعادة الانسان العربي ولا ازدهاره ولا انخراطه في مسلسل انتاج القيم المضافة على المستوى الإنساني. ولا احد يعرف لماذا، ولا أحد يجرؤ على البحث عن هذا "اللماذا؟".

إن الانهيار المفاجئ لأسعار النفط كاد أن يفضح المستور، وينزع ورقة التوت. ويرجع الانسان العربي الى طبيعته الأولى، أي طبيعة البداوة المتأصلة في النفس، وفي السلوك الباطني، وفي الذهنية والوجدان، رغم مخادع المظهر. بل ان احتمال وقوع هذه الانتكاسة، يظل واردا ومحتملا، ما لم يدرك الحاكم العربي أن النمو والازدهار مرتبطان بمكنون الانسان، أكثر من ارتباطهما بمخزون البلدان. ومن ثمة يصبح لمقام الجائحة مقالها المخصوص بالنسبة للإنسان العربي، ولمجاله، ولطبيعة العلاقة بينهما في الحال وفي المال.

وغريب أمر الدرس الذي لقنته ايانا، نحن العرب، جائحة الفيروس التاجي "كورونا"؛ انها ما إن تصيب فردا من الأفراد، حتى تكرس "فردانيته" بشكل مطلق، وبكل معانيها؛ يعزل عن عائلته، ويفصل عن قبيلته، ويبعد عن عشيرته، ويتوارى عن صاحبته وعن بنيه، وبذلك يشفى، ويكسب مناعته الذاتية، وينخرط في الحياة الإيجابية.

ان "العصبوية" التي تشكل السمة الغالبة على المجتمعات العربية من خلال تكريس الانتماء القبلي، والمناصرة العشائرية، والاستقواء العرقي والفئوي، هي الحاجز المانع لمجتمع الكفاءة والاستحقاق، والتنافس، والابتكار في مجالنا العربي. بل لعلها البؤرة الحاضنة لكل اشكال التوتر، واللااستقرار، والمانعة للعيش الامن والمشترك. فهذه لبنان، تشكل اليوم، نموذجا عربيا صارخا لما يمكن أن تؤدي اليه "العصبوية" communautarisme المستشرية في هذا المشهد المتوتر والمنذر بالانفجار المجتمعي

في كل حين.

لا شك أن لموضوع الحسم في ثنائية العصبة/الفرد، راهنية ملحة. فالظروف التي استوجبت التكتل العصبوي فيما مضى، ليست هي الظروف التي نعيشها اليوم. وبالتالي يصبح الاستمرار في ابقائها وتعطيل دور الفرد العربي، تعطيلا للتطور البشري، بالنظر لما تمثله مساهمة الفرد، بمفهومه المطلق، في تطوير الحياة الإنسانية. العربي، تعطيلا للتطور البشري، بالنظر لما تمثله مساهمة الفرد، بمفهومه المطلق، في تطوير الحياة الإنسانية.

خصوصا وان العصبوية لا تمثل مفهوما مجردا ، ولكنها، بالأحرى، بؤرة مفاهيمية، يتشابك فيها جانب اجتماعي ظاهر، تمثله الانتماءات القبلية و العشائرية وغيرها؛ و جانب سوسيو اقتصادي محكوم بالطابع الابوي في الحفاظ على وحدة الملكية العائلية وما يستوجب ذلك من انغلاق على الذات العرقية و العائلية والعشائرية و الطائفية، مخافة تشتت الملكية وتفتيتها والسماح للأغيار بالاندساس إليها؛ وجانب سياسي، يحيل التعددية، المفروض ان يكون مجالها الرأي الحر والاختيار المفتوح، إلى تعددية للكتل المغلقة على ذاتها؛ وجانب ذهني وفكري تتجسد فيه ومن خلاله كل هذه الجوانب السابقة، بتغليب المنقول على المعقول، والمورث على البدعة المستحدثة و المضللة... كل هذه الجوانب لا زالت مستشرية، إلى الآن، في الوطن العربي. وهي أقرب إلى أن تمثل طبعا جوانيا endogène منها الى طابع براني exogène تسهل معالجته.

ان درس جائحة كورونا الموجه للمجتمعات العربية يشير، فيما يشير اليه، الى ان الفردانية اساس تعافي المجتمع العربي وانعتاقه من مثبطات العصبوية. لقد آن الاوان للانطلاق في مشروع "اختراع للفرد العربي" المتحرر من الانتماءات المقيدة.

فاذا كانت الاحداث التاريخية التي مرت بها الشعوب والأمم، تثبت جميعها ان الفرد كيان سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي حيوي. وانه المنطلق، والفاعل، والمتفاعل، المباشر مع الاستقرار والتنمية والازدهار، فلماذا تتقاعس السياسات العمومية العربية عن مواجهة هذا الوضع المهدد للكيان العربي بأكمله؟

لماذا هذا الإصرار على إبقاء الحال على حالها، والاكتفاء بسياسات المنقول/الملصق /copier coller الخادعة والموهمة بحقوق غير موجودة، وديمقراطية مفقودة، وعدالة موؤودة ،وحرية أبوابها موصودة. هذا الإصرار هو الذي تنادينا الجائحة اليوم بمراجعته. ولن يتم ذلك، في اعتقادي، الا عبر منظومة تنموية ثلاثية الأبعاد:

بعد مجالي، يكرس مبدأ المنافسة والاجتهاد في تثمين المقدرات الوطنية. وبعد إنساني، يحل الخبرة محل القرابة، والنجاعة محل الأبوية، ولن يتم ذلك الا بالتخلي عن العصبوية وإقرار ميلاد الانسان العربي الجديد الذي ينخرط بمداركه الجديدة في بناء حضارة المعرفة وبعد تدبيري يتجاوز البعد المؤسسي الى نوع من التعبئة الجديدة من أجل إرساء دعائم نظام عربي جديد يكون الانسان الحر مبتدأه وخبره.